التجسد ومصير الإنسان

دراسة لكتاب تجسد الكلمة

للقديس أثناسيوس الرسولي

دكتور

جورج حبيب بباوي

١٩٧٤ – ٢٠٢٢

www.coptology.org

جدول المحتويات

-١- ٤
التجسُّد ومصير الإنسان ٤
تمهيد ٤
ارتباط الخلق بالتجسُّد: ٥
صلاح الله ومحبته هما سبب الخلق: ٧
الاعتقاد السليم بالخلق وأثره على نظرتنا للجسد: ٨
-٢- ١١
الله – الكون – الإنسان ١١
"أنا كائن" .. أخذناها من الكلمة: ١٢
ظاهرة الوثنية: ١٤
الكون والتجسُّد: ١٦
-٣- ١٩
الحياةُ غلبت الموتَ بالموت ١٩
تمهيد: ١٩
الاتحاد كان للقضاء على الموت والفساد معًا: ١٩

ماذا يعني موت المسيح على الصليب؟ ٢٠

– ١ –

التجسُّد ومصير الإنسان[١]

تمهيد

قلائل من الذين يقرأون كتاب تجسُّد الكلمة يدركون أنه لا يحتوي على التعليم اللاهوتي الأرثوذكسي فقط، بل هو أيضًا أحد المصادر الأساسية للاهوت النسكي والطقسي في الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية.

حقيقي أن القديس أثناسيوس حصر فكره في موضوع التجسُّد، ولكنه عندما كتب فقد استخدم المصطلحات اللاهوتية التي صاغها أسلافه بل واعتمد اعتمادًا مباشرًا على تعليم الكنيسة الجامعة عن الخلق وعلاقة الله بالمادة على وجه خاص.

ولكي نؤكد أن أثناسيوس لا يكتب مقالًا لاهوتيًا، جافًا يكفينا أن نقتبس هذا النص:

> "قديمًا قبل الظهور الإلهي للمخلص كان الموت يُرعب أقدس الرجال بل كانوا ينوحون على الأموات كما لو كانوا هلكوا، أما الآن وقد أقام المخلص جسده لم يعُد الموتُ مرعبًا بعد، حتى أن الذين يؤمنون بالمسيح يدوسون الموت كأنه لا شيء ويفضِّلون أن يموتوا عن أن ينكروا إيمانهم بالمسيح ... بل يسارعون إلى الموت ليصيروا شهودًا للقيامة رغم أنهم لا يزالون في عنفوان الشباب يسارعون إلى الموت،

(١) مجلة مرقس العدد ١٥٧ يناير ١٩٧٤، ص ١٠ وما بعدها.

ليس الرجال فقط بل النساء أيضًا ويدربون أنفسهم على الجهاد ضد الشيطان الذي صار ضعيفًا .." [فصل ٢٧: ٢ و٣].

القديس أثناسيوس يؤكد في هذا النص أن موت المسيح وقيامته هما الأساس اللاهوتي الذي بُنِيَ عليه الجهاد الروحي والاستشهاد، وهو يدعم كلامه عن تجسُّد الكلمة بقوله:

"إن البراهين التي قدَّمناها ليست مجرد كلمات جوفاء، بل هي كلمات تعبِّر عن اختبارات حقيقية. فليذهب من أراد أن يتحقق ليرى برهانًا على صحة التجسُّد وهو بتولية عذارى المسيح وعفة الشباب الذين يمارسون الحياة النسكية المقدسة واليقين بالخلود الذي يملأ قلوب ذلك الخورس العظيم من الشهداء". [فصل ٤٨: ١ و٢].

ولقد أكد أثناسيوس بهذه الكلمات سلامة الاتجاه النسكي في الكنيسة، إذ أن البتولية هي نعمة المسيح المعطاة للجسد والروح.

ومن النواحي الطقسية الأساسية التي أشار إليها القديس أثناسيوس هي استعمال رشم الصليب إذ يقول في أثناء حديثه عن قيامة المسيح:

"بعلامة الصليب تبطُل قوة السحر وتتلاشى كل قوات العرافة ... وتبطُل كل الملذات الدنسة وتتحول أنظار الجميع من الأرض إلى السماء، فكيف يُقال إن المسيح ميِّتٌ وهو يتمم هذه الأعمال الكثيرة" [فصل ٣١: ٢].

ارتباط الخلق بالتجسُّد:

ويؤكد لنا أثناسيوس أن كل ما في الحياة متصل بالتجسُّد – بالصلب – والقيامة. وكل ما في الكنيسة مستَمَد مباشرةً من حياة المسيح، فكيف توصَّل

أثناسيوس إلى هذا اليقين؟ لقد شرح أثناسيوس التجسُّد في نقطتين رئيسيتين:

أولًا: صفات الله التي لا تتغير، وبالذات المحبة والصلاح.

ثانيًا: العالم الذي خُلق من العدم والذي دخله الفساد والموت.

عندما يتحدث القديس أثناسيوس عن الله فهو ينفي كل الاعتقادات الوثنية القديمة الخاطئة التي نشرتها بعض مدارس الفلسفة اليونانية أو التي تبنتها الهرطقات الغنوسية، وفي كتابه رسالة إلى الوثنيين، وهو المقدمة الطبيعية لكتاب تجسُّد الكلمة فنَّد أثناسيوس آراء الفلاسفة الوثنيين ممهِّدًا الطريق إلى الموضوع الرئيسي الذي يشغل باله، وهو التجسُّد.

وفي مقدمة تجسُّد الكلمة عالج القديس أثناسيوس موضوع خلق العالم والإنسان من جديد مبرزًا تعاليم الكنيسة الجامعة. المشكلة الرئيسية بين المسيحية وكل الأفكار غير المسيحية؛ هي نظرة المسيحية إلى العالم وإلى الإنسان بوجهٍ خاص، فلا يزال الإنسان حتى بعد أن تخلَّص من أرسطو وأفلاطون ينظر إلى الكون نظرة طبيعية تخلو من الفرح والابتهاج. وفي زمن القديس أثناسيوس كانت الأفلاطونية على وجهٍ خاص ترى أن المادة شَرٌّ، وأن كل ما هو مادي مصيره إلى العدم والزوال انطلاقًا من الإيمان بأن الشر لن يبقى ولن يدوم، وبالطبع إن شخصًا يعتقد مثل هذا الاعتقاد لا يجد لذةً في العمل ولا فرحًا في البقاء في الجسد. وفي عصرنا هذا اكتسب ذات الاتجاه مظهرًا آخر مختلفًا عن تعاليم المدارس الفلسفية اليونانية، الإنسان المعاصر غير المسيحي الذي لا يؤمن بالخلق كمظهر من مظاهر محبة الله وصلاحه، لا يرى في الكون أو في المادة سوى مظاهر طبيعية جوفاء لا معنى لها، وربما كانت علوم الطبيعة والكيمياء هي العنصر الحاسم الوحيد الذي أعاد إلى

الإنسان المعاصر الشعور بوجود نظام وغاية في الكون.

صلاح الله ومحبته هما سبب الخلق:

المنطق الأساسي للقديس أثناسيوس هو أن الله كُلي الصلاح والمحبة وأن صلاحه هو السبب الأساسي في خلق العالم:

> "الله صالح وبالحري هو مصدر كل صلاح ومن المستحيل على الله أن يضن بنعمة الوجود على أي شيء، لذلك خلق كل الأشياء من العدم بالكلمة يسوع المسيح ربنا". [فصل ٣: ٣].

وخلْقُ الكون من العدم بالكلمة يعني وجود اتحاد لا يمكن تحديده بين الله والعالم. يقول أثناسيوس في الرسالة إلى الوثنيين:

> "كلمة الآب القدوس الكُلي القدرة الكُلي الكمال اتَّحد بالكون وكشف عن قوته في كل أرجاء الكون، إذ أنار الكل ما يُرى وما لا يُرى، وهو يُمسك بكل الكائنات ويربطها به، وبذلك لم يترك شيئًا من المخلوقات محتاجًا إلى قوته بل بالعكس يُحيي كل شيء في كل مكان .." [فصل ٤٢: ١].

وأثناسيوس يؤكد في الفصل السابق أن سبب اتحاد الكلمة بالعالم المخلوق هو أن يبقى الكون وأن تستمر الخليقة، ذلك لو أن الله خلق العالم وتركه أو تخلَّى عنه لأي وجه من الوجوه، فإن مصير العالم هو التلاشي. فالله حاضرٌ في الخليقة حضورًا حقيقيًّا إذ أن الكلمة يرتِّب ويضبط كل شيء في الكون، وبالتالي يسير الكون وفق النظام الدقيق الذي وُضِع له. وأن أثناسيوس يؤكد في كل فصول الرسالة إلى الوثنيين وفي كل فصول تجسُّد الكلمة حرية الله في الخلق، ذلك أن الله الكُلي القدرة لم يرغمه أحدٌ ما على خلق العالم، بل خلقه بحريته وهو يرعاه ويسوسه بحريته

وأن هذه الحرية نابعةٌ من صلاح الله(١).

الاعتقاد السليم بالخلق وأثره على نظرتنا للجسد:

إن الاعتقاد السليم هو المقدمة الطبيعية للإيمان بالتجسُّد. ولقد أدرك أثناسيوس هذا فقال:

> "يليق بنا نبدأ بحث (تجسُّد الكلمة) بالحديث عن خلق الكون وعن الله بارئه لأن هذا وحده يُمكِّنُنا أن ندرك أن تجديد الخليقة كان من عمل الكلمة الذي خلق الكون في البداية، وسوف يتضح لنا أنه لم يكن أمرًا مخالفًا أن يتمم الله خلاص العالم بذاك الذي خلقه به في البدء" [الفصل الأول: ٤].

ومنذ أن كُتِبَت هذه العبارة حتى يومنا هذا لا زالت كل الاعتراضات الموجَّهة ضد عقيدة التجسُّد نابعة من مصدر واحد؛ وهو الاعتقادات الخاطئة عن علاقة الله بالعالم؛ لا تزال الغنوسية مستترة تحت أشكال مختلفة في الأدب المعاصر تحاول أن تنال من كرامة الجسد وتصوِّره على أنه دورة مياه متنقلة أو صفيحة زبالة، ولقد غالى الإنسان في تحقير الجسد واعتبر ان المواد الأولية التي يمكن أن يحصل عليها من الجسد تكفي لصنع قطعة واحدة من الصابون وأربعة مسامير ... الخ.

والحقيقة المؤسفة أنه كلما قلل الإنسان من كرامة الجسد كلما زادت الدكتاتورية وانتشر القهر الاجتماعي. وكلما تمسَّك الإنسان بكرامة الجسد كلما أصبح للديموقراطية والحرية الاجتماعية أساسٌ سليم تستند عليه، ذلك أن كل جهود الإنسان المعاصر في مجالات الصناعة والزراعة والطب. كلها تنحصر في أشياء تقدَّم

(١) راجع الفصل الثاني والثالث من تجسُّد الكلمة.

للجسد أو تنال منه.

إن الإنسان المعاصر لا يدرك أن تعليم المسيحية عن الخلق هو أحد المفاتيح الأساسية لحل مشكلات عديدة تواجه الإنسانية بأسرها. ففي مجال العلاقات الإنسانية وهي كلها قائمة على أمور مادية بحتة، يتصارع الناس بالطريقة التي وصفها أثناسيوس:

"خطايا الزنى والسرقة قد عمَّت كل مكان وامتلأت كل الأرض بخطايا القتل والنهب وأصبح البشر لا يرعون حرمة الناموس بل يرتكبون الجرائم في كل مكان .. وسادت المسكونة روح الخصام والقتال حتى تمزقت شر ممزق" [الفصل الخامس ٤ و٥].

ولقد أكد أثناسيوس أن المجال الأساسي لكل نشاط الشر ومظاهره هو الجسد والمادة بصورةٍ عامة:

"إن الناس استخفوا بالأمور الأفضل ورفضوا إدراكها فبدأوا يبحثون عن الأمور الأقرب إليهم وهي الجسد وحواسه ... وبحصر الفكر في الجسد وسائر الأمور الأخرى الحسية، انخدعوا بما حولهم واستُعبِدوا لشهوات أنفسهم مفضِّلين ما هو لذواتهم عن التأمل فيما هو لله. وإذ انغمسوا في هذه ... أوقعوا نفوسهم في حبائل الملذات الحسية فاضطربت نفوسهم وارتبكت بكل أنواع الشهوات" [الرسالة إلى الوثنيين الفصل الثالث ١ — ٣].

ويجب أن نلاحظ هنا أن أثناسيوس لا ينسب الشر للمادة، وإنما يعتبر أن المادة والجسد هي المسرح الأساسي الذي يمثِّل الشرُّ عليه دوره الأساسي. ولقد أكَّد أثناسيوس هذا فقال:

"إن النفس متحركة بالطبيعة وإذ تعرف سلطانها على ذاتها، فإنها ترى بأنها تستطيع استخدام أعضاء جسدها في أحد اتجاهين: إما في اتجاه

> الوجود أو في اتجاه العدم. والخير هو الوجود والشر هو العدم. وأنا أقصد بالوجود ما هو خير لأن له مماثلة في الله، وأقصد بالعدم ما هو شر لأنه ينحصر في الأوهام الباطلة التي تُولَد من أفكار البشر. [الرسالة إلى الوثنيين فصل ٤: ٣ و٤].

والتمييز بين الخير والشر هنا يعتمد على نقطتين أساسيتين:

أولًا: إن ما هو كائن أو موجود هو جزء من الخليقة التي رتَّبها الله وهو له غاية يعرفها الإنسان من خلال علاقته بالله.

ثانيًا: إن الشر محصورٌ فيما يخترعه الإنسان، أو هو وليد الأوهام الباطلة، أي ما لا غاية له، وإن الغاية دائمًا أبدية حسب تعليم آباء الكنيسة الجامعة، ولأن كل ما أوجده الله مصيره إلى مجد الأبدية، فإن المادة والجسد سوف تتجلى في النهاية بذلك المجد العجيب الذي تحدَّث عنه أثناسيوس في الفصل (٥٦) من تجسُّد الكلمة. وبعد أن شرح كل شيء عن التجسُّد قال:

> "لكي تتعلم أيضًا الظهور الثاني الإلهي الآتي والمجيد لأنه لا يظهر في اتضاع بل في مجد .. ليقدم للجميع ثمار صليبه أي القيامة وعدم الفساد".

في النهاية سوف يتمجد الجسد بالقيامة، سوف تتغير المادة على نحو ما لتشع بمجد اللاهوت وأن هذا أصبح ممكنًا فقط، لأن الكلمة صار جسدًا.

-٢-

الله – الكون – الإنسان[١]

من الصعب علينا إدراك عمق شعور أثناسيوس بالإعجاب بالخليقة وعظمتها كعمل من أعمال الله احتوى كل شيء يخص الإنسان. عند أثناسيوس لا يمكن فصل علاقة الله بالإنسان من خلال الكون وعلاقة الإنسان بالكون. الله – الكون – الإنسان. فالكون هو ذلك "الجسم" الهائل الذي فيه وبه يعلِن الله عن عظمته وإرادته وعنايته ومحبته.

أثناسيوس مشغولٌ جدًا كمسيحي بعقيدة الخلق، فهي مفتاح الكثير من موضوعات اللاهوت، وحولها -كما ذكرنا سابقًا- يدور صراعٌ طويل، قديمٌ وجديد. الله لم يخلق الكون عبثًا، ولا جعل الإنسان في الكون إلَّا لأنه أفضل وضع للإنسان كمخلوق (الرسالة إلى الوثنيين فصل ٢ – ٣). ومما لا شك فيه أن طبيعة الإنسان كمخلوق من العدم هي وحدها التي تجعل الله يهتم بالإنسان ويرعاه.

> "العناية بالخليقة هي من اختصاص الذي خلقها، ومن هو إلَّا كلمة الله" [الرسالة إلى الوثنيين ٤٦: ٣].

وكلمة **مخلوق** عند أثناسيوس تعني الاعتماد المطلق على الله، ذلك أن الإنسان لم يحصل على أي شيء يخصه سواء الوجود أو الحياة بقوته الخاصة، بل من

---

(١) مجلة مرقس، العدد ١٥٩ مارس ١٩٧٤، ص ٢٠ وما بعدها.

الله الذي وَهَبَه كل شيء بالكلمة [تجسُّد الكلمة فصل ٣: ٥].

من هنا يمكننا أن ندرك أن الاعتماد المطلق على الله بالنسبة للإنسان أو الكون هو ما يربط بين الخالق والخليقة. لقد كتب أثناسيوس الكثير وبإفاضة حول هذه النقطة مؤكِّدًا ركائز دفاعه عن الإيمان ضد تفسير أريوس. فالإنسان يحتاج إلى الله وسيبقى دائمًا في حاجةٍ إليه لأن الله هو مصدر كل شيء فيه.

"أنا كائن" .. أخذناها من الكلمة:

في استطاعة الإنسان أن يقول "**أنا كائن**" لكن هذه الاستطاعة ليست قدرة ذاتية في الإنسان بل هي منحة إلهية من الله الخالق.

> "بالطبيعة الإنسان مائت لأنه خلق من العدم، لكنه يحمل صورة الذي خلقه أي الكائن Who Is" [تجسُّد الكلمة ٤: ٥].

هنا يمكننا أن ندرك قيمة تركيز أثناسيوس على موضوع الخلق — الصورة، فالإنسان قادرٌ على أن يتصل بالله لأنه يحمل صورة الله، وهذه الصورة وحدها هي التي تمكِّن الله من مشاركة الإنسان مصيره، وتجعل قيام شركة بين الخالق والمخلوق ممكنًا. هذه المنحة "**أنا كائن**" يفهمها الإنسان في ضوء علاقته بالله، وخارج هذه العلاقة لا معنى لها بالمرة لأن الخروج على الشركة مع الله تعني العدم = الشر أو البقاءِ في الحالة الطبيعية التي منها أُخذ الإنسان.

> "الله خالق الكل، ولذلك فهو ملك الكل. هو فوق كل الطبائع ولا يمكن أن يكتشفه الإنسان. لكنه خَلَقَ بكلمته مخلصنا يسوع المسيح، الجنسَ البشري، حسب صورته لأنه صالحٌ بدرجةٍ لا تُوصَف، ولما خَلَقَ الإنسان على صورته جعله بذلك قادرًا على معرفة الحقائق إذا ظلَّ على صورته (الله) لأن الله أعطاه عقلًا ومعرفةً من (عقله) الأزلي"

[الرسالة إلى الوثنيين ٢: ٢].

فكل ما يملكه الإنسان هو منحة إلهية وبالذات "العقل" الذي يصفه علماء الآباء بأنه **عرش الصورة الإلهية في الإنسان**. إن أثناسيوس يؤكِّد أن ارتفاع الإنسان فوق كل المخلوقات هو نتيجة النعمة الإلهية، أي العقل الإلهي في الإنسان. مِن الله أخذه، ويبقى دائمًا مثل القناة المتفرعة من النهر العظيم، فكل ما في الإنسان أو الكون مستمدٌ من الله مباشرةً.

إن الشعور باليأس وبالفراغ وبالعدم الذي يسيطر على الإنسان المعاصر هو انعكاسٌ لحقيقة واحدة، وهي الابتعاد عن مصدر الوجود والحياة. وكل ما يحفل به "الأدب الوجودي" هو تأكيدٌ لما كَتَبَه أثناسيوس. فالصراع ضد العدم الذي يشلُّ كل ما في الحياة هو صراعٌ للتخلُّص من فراغٍ نشأ بسبب الابتعاد عن الله.

"**أنا كائن**" عبارةٌ تحمل الكثير من الأسرار، فهي قد تكون صرخة تأكيد الوجود، وما تأكيد الوجود إلَّا حيلةُ مَن يعاني الموت ويشعر بأنه مُهدَّدٌ بالزوال. و"**أنا كائن**" هي الإطار الذي تحدَّث فيه الأنبياء، لأن الذين سمعوا الله وأخذوا منه كلماته قالوا لنا وبلغتنا إن "**الله كائن**" وهنا تتصارع الفلسفات حول صورة الله في الإنسان وصورة الإنسان عن الله. والكل يذكر عبارة فيورباخ الشهيرة "الإنسان خَلَقَ الله على صورته"، أي عكس ما نتحدث عنه. ووجهُ الخطأ هنا هو انعدام الدراسة الجادة لصورة الله في الإنسان التي تمكِّنُه من أن يتصوَّر الله، وهو يخطئ دائمًا في التعرُّف على الله من خلال تكبير وتضخيم "**أنا كائن**" أو سحب المحدود منها ليصل في النهاية إلى إلهٍ مخلوق على صورة الإنسان، لا تحتوي صورته على ضعفات الإنسان. لقد حلَّل فيورباخ هذه الصورة كما فعل غيره وانتهوا إلى إنسانيتها المطلقة

ورفضوا هذا الإله الذي وصل إليه الإنسان عبر اكتشافه لنفسه، وهذا بدون جدال، صوابٌ. لكن مع هذه الصورة الإنسانية يكمن سرٌّ أعمق من أن تتناوله الكلمات، وهو الشعور العميق في الإنسان بأنه "موجود —كائن"، ولكن خلف ذلك الوجود أو معه يكمن دائمًا الإصرار على ملاحقة "آخر مجهول" في أعماقنا نريد أن نمسك به ولو بأيدينا، فنقع في الوثنية.

ظاهرة الوثنية:

لقد تناول أثناسيوس ظاهرة الوثنية بتحليلٍ دقيق قوامه حقيقتين أساسيتين هما المحاولة والخطأ:

أولًا: محاولة الإنسان البحث عن مصدر الحياة والوجود.

ثانيًا: خطأ الإنسان في ترجمة حقيقة سعيه الدائب نحو الله.

ومن فصل ١ — فصل ٤٦ من الرسالة إلى الوثنيين بذل أثناسيوس جهدًا خارقًا لاكتشاف ما يحتاجه الإنسان المهذَّب بكل تعاليم الفلسفة اليونانية وآدابها. كانت محاولة الإنسان الاستقلال عن الله —والتي عبَّر عنها أثناسيوس **برفض الإنسان تأمل الله نفسه**- هي السبب الأساسي الذي قاد الإنسان إلى الفراغ أو الموت أو العدم. وعلينا أن نلاحظ أن أثناسيوس يصرّح بأن:

"**كل ما هو شر فهو عدم.**

كل ما هو خير فهو كائن وموجود" [تجسُّد الكلمة ٤: ٥].

فالشَّرُّ رهيبٌ لأنه ليس الابتعاد عن الله، بل هو حركةٌ تأخذ شكلًا كيانيًّا وتقود الإنسان نحو العدم إلى الدرجة التي يتصوَّر فيها الإنسان أنه هو نفسه **عدم**، وهي صرخة الإنسان المعاصر. ويمكننا أن ندرك قساوة الشر إذا انطلقنا من قساوة

العدم = ضياع الهدف – الانحلال الخلقي – اليأس .. وسائر الرذائل التي هي كلها ليست إلَّا ترجمةً دقيقةً عما انتهى إليه الإنسان من قرارات تخصُّ الكون ونفسه. لقد امتدح الرومان "الانتحار"، ومدحه أيضًا أدباء معاصرون في الغرب. أمَّا ما يقوله أثناسيوس وغيره من الآباء إن الانتحار هو تعبيرٌ عن الإحساس بالعدم [قصة الطاعون – البير كامي].

كانت الوثنية مرحلةً ناتجةً عن السقوط بالضرورة، فهي مرحلة البحث الدائب عن الله، ولذلك يرتِّب أثناسيوس تاريخ الخلاص على النحو التالي:

الخلق – السقوط – الوثنية – مجيء الكلمة.

وهذه المراحل التي مرَّت بها الإنسانية هي في حد ذاتها أساسيةٌ لفهم الإعلان الإلهي، ولذلك تناول جميع آباء الكنيسة الجامعة ظاهرة الوثنية واعتبروها تجربةً إنسانيةً تعبِّر عن شوق الإنسان إلى الله من ناحية، ولكن هذا الشوق واكبه النزوع إلى امتلاك الله –**الصَّنَم** هو الإله الذي في متناول اليد– بل والسيادة عليه – **السحر** هو استخدام الآلهة لمصلحة الإنسان. ولذلك، كان علاج الله هو أن يعيد الإنسان إلى حالته التي خُلِقَ عليها لكي لا تذهب جهود الإنسان نحو الوثنية أو الآلهة المزيفة [راجع فصول ١١ – ١٥ من تجسُّد الكلمة] بل نحو الإله الحقيقي.

لم يكتب أثناسيوس عبارة أوغسطينوس البليغة "**لقد خلقتنا يا رب لك وسنظل قلقين حتى نستريح فيك**"، لكن بكل يقين فإن أوغسطينوس قرأ تجسُّد الكلمة وحياة أنطونيوس، وصاغ لاهوت الغرب اللاتيني كله على ضوء ما فهمه من لاهوت أثناسيوس. فالشوق إلى الله قد يُترجمه الإنسان إلى الاهتمام بالكون كشيءٍ يسدُّ الفراغ الذي خلقه السقوط. وكل محاولات الإنسان للابتعاد عن الله هي

سقوط، **وهي سقوطٌ لأن الابتعاد عن الله هو ابتعادٌ عن الإنسانية فالإنسان مخلوق على صورة الله.**

الكون والتجسُّد:

يقول أثناسيوس:

"إذا كان الكلمة قد اتَّحد بكل أجزاء الكون، فما هو الغريب أو غير المقبول إذا قلنا إنه اتَّحد بجسد إنسان" [تجسُّد الكلمة ٤١: ٤].

حقيقي أن القديس أثناسيوس يتحدث إلى مثقفي زمانه عن حلول واتحاد الكلمة بالكون وهو ما نعبِّر عنه نحن بقولنا "لا يوجد مكان إلَّا والله فيه" أو التعبير الشرقي الشائع "الله موجود في كل مكان"، رغم ما في كلمة "موجود" من خطأ لاهوتي ظاهر؛ "موجود" اسم مفعول. ولكن الحقيقة التي لا يمكن لأحد من الناس أن ينكرها هي وجود الكون وأن هذا الكون على صلةٍ ما - لا يمكن شرحها، بالخالق. إذا كان الله يهتم بالكون ويرعاه، وبدونه لا يمكن للكون أن يستمر في البقاء، فمن الواضح أن هذه العلاقة الكيانية هي من صميم تجسُّد الابن:

"الذين يتوهمون أن ظهور المخلص في (جسد) إنساني لا يليق به (الكلمة) نظرًا لأن الجنس البشري مخلوق من العدم [عليهم ان يعترضوا على علاقة الكلمة بالخليقة] وأن ينكروا علاقته بالخليقة لأنها هي أيضًا وُجِدت من العدم .. الكلمةُ في الخليقة رغم أنها مخلوقة، فليس غريبًا أن يكون في الإنسان لأن ما يخص الكل [الخليقة] يخص أي جزءٍ منها أي الإنسان" [تجسُّد الكلمة ٤٢: ٢-٦].

يخطئ مَن يظن ان أثناسيوس يقدم برهانًا اعتراضيًّا على الذين ينكرون التجسُّد، فهو في الحقيقة يقول: الإنسان جزءٌ من الكون. فلماذا لا يحظى برعايةٍ

مثل الشمس والقمر وباقي المخلوقات. الإنسان يشارك الكل في أنه مخلوقٌ من العدم. وهذه هي المسافة الرهيبة التي تفصل بين الخالق والمخلوق. لكن رغم وجود هذا البون الشائع، فإن كل المخلوقات بما فيها الإنسان يؤَكِّد وجودُها -وجودُها في حد ذاته- بأنها تتمتع بعناية الله ومسرته. وأثناسيوس لا يقف عند مجرد إمكانية اتحاد الكلمة بالجسد طالما أنه مُتَّحدٌ بالكون. ذلك أن كل ما في الكون لا يشارك الله في صورته. ولقد أكد آباء الكنيسة الجامعة أن صِغر حجم الإنسان بالنسبة إلى الكون هو برهانٌ على أن صورة الله ليست "كمًّا" بل "نوعًا" وإذا جاز استخدام التفرقة بين الكمِّ والنوع، فإن أثناسيوس نفسه يؤكد أن قيمة الإنسان هي في "نوعية" لا يمكن إدراكها إلَّا من خلال العلاقة بالله، ولذلك، فكل ما في الحياة ما لم يرجع إلى الله لا يمكن فهمه ولا حتى اكتشاف غايته. ولعل في معرض الحديث عن الغاية نورد هذا النص الجميل:

> "لم تكن حرية الإنسان الأول مقيَّدة بالخجل لأن عقله كان يتأمل الله" [الرسالة إلى الوثنيين ٢: ٤].

وكان أثناسيوس يقول إن عودتنا إلى الله يمكنها أن تشرح لنا غموض الصراع بين الحرية والخجل. ألم يكن الخجل ثمرة السقوط، أو حسب تعبير الروائي العظيم دوستويفسكي "رأى الإنسانُ ذاته بدون الله فاعتراه خجلٌ شديد لأنه رآها مُوحِشة".

يمكننا أن نرى الله في الكون فنفهم عناية الله، ويمكننا أن نرى في هذه العناية بشائر التجسُّد، ذلك أن الكون كله خُلِقَ لأجل الإنسان، وكل القوى الطبيعية الهائلة التي يتفرغ ألوفٌ من الناس لدراستها والتي لم ينتهِ الإنسانُ من دراستها هي خادم الإنسان. فكيف يعتني الله بالخادم ويترك الإنسان الذي يحمل ختمه Seal.

لقد ختم الله الطينَ فوضع فيه صورته، وبذلك جعل الكون مشاركًا إياه من خلال الإنسان. الله – الكون – الإنسان هو موضوع أثناسيوس الأول لأنه يحمل في طياته القاعدة المتينة للتجسُّد.

-٣-

الحياةُ غلبت الموتَ بالموت[١]

تمهيد:

عندما تجسَّد الربُّ كان تجسُّدُه اتحادًا حقيقيًّا بكل مكونات الإنسان من جسدٍ ونفس. **ذلك أن ما أخذه الرب من طبيعتنا واتحد به هو ما نال الخلاص، وما لم يأخذه ويتَّحد به الرب، يظل على حاله بدون تجديدٍ**. هكذا أجاب الآباء جميعًا على هرطقة أبوليناريوس التي رفضت تعليم الكنيسة عن كمال إنسانية المسيح أي أنه في تجسُّده اتحد بالنفس والجسد.

وفي الواقع يعدُّ الاتحاد بين اللاهوت والناسوت ركيزةً أساسيةً في موضوع الخلاص.

الاتحاد كان للقضاء على الموت والفساد معًا:

عندما تجسَّد الربُّ كان تجسُّده أشبه بحلولِ ملكٍ من الملوك ضيفًا على مدينةٍ من المدن. وحضور الملك في المدينة يعني تشريفًا لا مثيل له إذ يرفع من شأن المدينة وسُكانها (تجسُّد الكلمة ١٠: ١) لكن الرب لم يكتفِ بمجرد الحلول في

(١) مجلة مرقس، العدد ١٦٠ ابريل ١٩٧٤، ص ١٠ وما بعدها.

جسد بشري ذلك أن هذا الحلول هو أمر طبيعي، فالكلمة يحلُّ في كل شيء ويضبط كل شيء بل كان اتحادًا وثيقًا، وفي ذلك يقول أثناسيوس:

"أمَا وقد تغلغل الفساد في الجسد وساد الموت على الجسد كما لو كان متَّحدًا به. فإن [الفداء] هو أن تتغلغل الحياة بدل الموت وكما ملك الموت في الجسد هكذا تملك الحياة .. لذلك لو كان الكلمة قد ظل خارج الجسد فإنه كان سيقهر الموت –لأن الموت عاجزٌ أمام الحياة– ولكن الفساد المتغلغل في الجسد كان سيبقى فيه رغم ذلك لأنه صار طبيعة الإنسان. لذلك جاء المخلص وأخذ جسدًا حتى يستطيع أن يلتقي بالموت في الجسد ويبيده" [تجسُّد الكلمة ٤٤: ٥ - ٦].

كان الاتحاد حقيقيًّا ولم يكن مجرد اتصالٍ بالجسد، ويقدم أثناسيوس تشبيهًا بليغًا جدًا؛ القش قابلٌ للحريق ويظل كذلك لأنه بطبيعته لا يمكن أن ينجو من النار متى اقتربت منه، أي أن خطر الموت والفساد قابعٌ دائمًا لأن الإنسان انفصل عن الله، فكان من الضروري أن يأخذ القش نوعًا من الضمان ضد الحريق وذلك بإضافة مادة الاسبستوس التي تصمد أمام النار [تجسُّد الكلمة ٤٤: ٧] ولذلك كان من الضروري أن يُوهَب الإنسان ضمانًا ضد الفساد.

ماذا يعني موت المسيح على الصليب؟

لقد شاركنا الرب في كل شيء ما خلا الخطيئة وحدها، ولذلك فقد أخذ جسدًا مثل جسدنا أو جسدًا لا يختلف عن جسدنا، وكلا التعبيرين يتكرران دائمًا في تجسُّد الكلمة (راجع مثلًا ٨: ٢ – ٨: ٤ – ٩: ١ – ١٣: ٩) والجسد الذي يماثل جسدنا هو "جسدٌ قابلٌ للموت" (٩: ١ و٢٠: ٤). وفي الحقيقة هناك فرق

جوهري بين الجسد الخاضع للموت والجسد القابل للموت. ذلك أن الخضوع للموت هو خضوع ناشئ عن فساد الطبيعة الإنسانية، بينما قابلية الجسد للموت هو وضع طبيعي Natural بسبب ما آلت إليه الإنسانية بعد السقوط. وهو ما يحدث لنا نحن الذين تقدَّسنا ورُفِعَ عنّا حكم الموت:

"نحن الذين نؤمن بالمسيح لا نموت كما كانوا قديمًا يموتون حسب الناموس لأن حكم الموت قد بَطُلَ وعندما بَطُلَ الفساد وأُبيد بنعمة القيامة، فإننا من ذلك الوقت ننحل وفقًا لطبيعة أجسادنا الفانية في الوقت الذي يختاره الله لكل واحد منا" [تجسُّد الكلمة ٢١: ١].

لكن على الرغم من هذا، فإن أثناسيوس يؤكد ليس قابلية طبيعة الجسد الذي أخذه الرب للموت فقط، بل قابلية هذا الجسد للفساد:

"لقد تواضع الرب باتخاذه "جسد تواضعنا" (فيلبي ٣: ٢١) وأخذ صورة العبد لابسًا ذلك الجسد الذي كان قد استُعبِد" [ضد أريوس ١: ٤٣].

هذه النقطة على قدر كبير من الأهمية، فحقيقة التأنُّس هي الاتحاد بكل ما للإنسان، وعندما يتحد الابن بكل ما للإنسان فإنه لا يقضي على خواص الإنسان، وبالذات قابلية الجسد للفساد والموت. يظل الجسدُ دائمًا قابلًا للفساد والموت ويظل بعيدًا دائمًا عن الفساد والموت بسبب الاتحاد.

"لكن بفضل اتحاده بالكلمة لم يَعُد خاضعًا للفساد بمقتضى طبيعته. بل خرج عن دائرة الفساد بسبب الكلمة الذي أتى وظهر فيه" [تجسُّد الكلمة ٢٠: ٤].

"كان أمرًا مستحيلًا أن يموت الكلمة لأنه غير قابل للموت ولذلك أخذ لنفسه جسدًا قابلًا للموت. حتى يمكن أن يقدمه كجسده نيابةً عن الجميع" [تجسُّد الكلمة ٢٠: ٦].

وعلينا ان نفهم هذا الأمر وهذا ما يوضحه أثناسيوس.

"لقد جاع حسب خواص جسده، لكنه لم يمت من الجوع من أجل الرب الذي لبسه [الاتحاد] فإنه وإن مات لفداء الجميع، لكنه لم يرَ فسادًا لأن جسده قام ثانيةً بلا فساد لأنه لم يكن سوى جسد ذاك الذي هو الحياة ذاتها" [تجسُّد الكلمة ٢١: ٥-٧].

ذلك أن العنصر الحاسم في الصليب هو الاتحاد القائم بين اللاهوت والناسوت. كان جسد الكلمة قابلًا للموت،

"لكن باتحاده بالكلمة أصبح جديرًا أن يموت نيابةً عن الجميع. وبعد أن يسكن فيه الكلمة يبقى في حالة عدم فساد وبذلك يتحرر الجميع من ناموس الفساد بنعمة القيامة" [تجسُّد الكلمة ٩: ١، راجع أيضًا ١٣: ٩].

كان الموتُ في طريقه إلى ذلك الجسد الذي أخذه الرب، لكن عندما مات الرب بالجسد انتهى الموت، فلقد ظل الجسدُ بعيدًا عن فساد الموت، وهذا ما أظهرته القيامة. ولأن ناسوت المسيح قابل للموت، فقد مات على الصليب فعلًا. لم يكن الصليب تمثيليةً بل واقعةً حقيقيةً، فالصليب ذبيحةٌ:

"قدَّم [المسيح] للموت ذلك الجسد كمحرقةٍ وذبيحةٍ خاليةٍ من كل شائبة، فرفع حكم الموت فورًا عن جميع الذين ناب عنهم إذ قدَّم جسدًا مماثلًا لأجسادهم" [تجسُّد الكلمة ٩: ١].

وعندما مات الرب بالجسد، فقد ماتت كل الإنسانية ذلك أن الرب أخذ طبيعةً هي طبيعة كل البشر. وهذا ما يقوله أثناسيوس في عبارة واحدة:

"**إن ابن الله عديم الفساد قد اتحد بالجميع**" وكانت نتيجة الاتحاد بالجميع أنه "**ألبس الجميع عدم الفساد**" [تجسُّد الكلمة ٩: ٢].

ولكي نفهم هذا، علينا أن نتذكر ما سبق وقرره أثناسيوس بكل وضوح:

كان التجسُّد هو اتحاد الابن بطبيعة بشرية مماثلة لكل البشر على مدى العصور وعندما اتحد الابن بهذا الجسد ومات وقام وَهَبَ لناسوته عدم الفساد والتألُّه كنتيجة للاتحاد، وأصبحت هذه المنحة مقدَّمة مجانًا لكل الذين لهم طبيعة بشرية "قدَّم جسده للموت عوضًا عن الجميع .. لكي يُبطِل الناموس الذي كان يقضي بهلاك البشر **إذ مات الكل فيه**، وبذلك تم للموت بلوغ سلطانه الذي أُكمِل في جسد الرب ..".

وكنتيجة لذلك "**أعاد** [الرب بموته] **البشر إلى عدم الفساد**" [تجسُّد الكلمة ٨: ٤].

مِن هنا يمكننا أن ندرك أن أثناسيوس سوف يرتعش من سماع عظات تُلقى اليوم في كنيسته، أي الكنيسة القبطية، ذلك أن الخلاص ليس بموت المسيح فقط ولا بالصليب وحده. الخلاص هو بالتجسُّد، باتحاد اللاهوت بالناسوت، بالصليب والقيامة. ذلك أن موت الرب وحده هو قابلية الجسد للموت، لكن القيامة هي الجسد القائم بلا فساد، انتصار الحياة على الموت.

> "لقد تأنَّس لأجلنا، وبسبب الجسد أصبح الأخ البكر لنا؛ ذلك أن كل البشر سقطوا حسب تعدي آدم. لكن جسده [الرب] قبل أي [جسدٍ] آخر تحرَّر لأنه جسد الكلمة ونحن الذين صرنا مندمجين في جسده نُخلُص ونتحرر على مثاله" [ضد أريوس ٢: ٦٠] (راجع الترجمة الإنجليزية).

> He was made man for us, and our brother by similitude of body, still He is therefore called and is the "first born" of us, because all men being lost according to the transgression of Adam, His flesh before all others was saved and liberated, as being the Word's body, and henceforth we, becoming incorporate with It (body), are saved after Its pattern. N. & P.N. Vol. IV P. 381.

إن النص السابق يشرح لنا بوضوح، الكلمة الصعبة التي تتكرر في الرسالة إلى العبرانيين "**كمل**" Perfect عبرانيين ٥: ٧ – ٥: ٩ راجع ٧: ١٠ لأن الرب كمل was perfected بالآلام وبالقيامة، وما حدث له بالجسد صار هو الهبة التي تنالها الإنسانية لأن الله لما تأنَّس وصار في الجسد ألَّه الجسد deifies the flesh (ضد أريوس ٣: ٣٨).

فالخلاص هو على حد تعبير أثناسيوس الجريء كان تحريرًا وخلاصًا للطبيعة الإنسانية، وقد تم هذا في المسيح نفسه، ولذلك أصبح خلاص البشر ممكنًا بالمسيح وحده. لقد مات المسيح عنّا لكي تغلب الحياةُ التي فيه الموتَ الذي فينا وتُظهِر قيامته هو قيامتنا نحن.

+ + +